المشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر

أ. ليليا بن صويلح
قسم علم الاجتماع ، جامعة قالمة (الجزائر)

امتدّ المشروع الاستعماري في الجزائر إلى مختلف الجوانب السياسية والعسكرية، وعى الخصوص الجوانب الثقافية والاجتماعية، التي شكلت معالم كبرى ومحاور رئيسية في السياسة الاستعمارية المنتهجة في الجزائر و كان هاجسها الاستراتيجي السيطرة على الشعب ومكوناته وتدمير بناه الاجتماعية- الاقتصادية، وكانت الوسيلة هي الاضطهاد والقهر، تنفيذا لسياسة استعمارية هدفها قطع الصلة بين الشعب الجزائري وموروثه الحضاري تجسيدا لأطروحات الانثروبولوجيا الثقافية الاستعمارية التي تدعي بأن الاستعمار عامة والفرنسي خاصة قد أسس خطابه في الاحتلال على مفاهيم التمدين والتقدم والعقلانية بقدر ما كان همها المركزي اختراق الإنسان في فكره وثقافته ولغته، إجمالا في كل ما له صلة بكينونة وجوده وشخصيته وقد أوجد لهذا الغرض أكثر من نظرية بشكل ينسجم وإستراتجيته العامة في الاحتلال وتلك هي الأسرار التي جعلت من التوسع الاستعماري في الجزائر ظاهرة تاريخية فريدة من نوعها من حيث سلبية النتائج وعمق التأثير.

لقد سعت فرنسا منذ البداية إلى إحداث تغير جذري في البنية الثقافية، القيمية، الدينية والنفسية للمجتمع الجزائري من خلال إضعاف قوة نسيجه الاجتماعي وحشو ذهنه بمعتقدات خرافية تساهم في تخلف فكره وبالتالي الرجوع به إلى المراحل اللاهوتية والميتافيزيقية للتفكير الإنساني، كذلك محو شخصيته العربية الإسلامية واستبدالها بهوية أخرى غريبة عنه ومن المؤكد أن المجال الرمزي من دين، لغة، قيم و تعليم قد مثل بالنسبة للاستراتيجية الفرنسية الجسر الذي عبره يمكن للاحتلال أن يستقر ويمتد. فكان العمل من اجل تغريب الفرد الجزائري واختراق قيمه التاريخية والثقافية فحرصت على إيجاد مشروع ثقافي استعماري يحقق أهدافه البعيدة في إحكام السيطرة الكلية على

الجزائر مع العمل على هيكلة الدهنيات وخلق الأدوات وانتهاج الأساليب القادرة على ضمان استمرار يته .

إن السياسات الاستعمارية الفرنسية التي تبلورت ضمن استراتيجيا عامة وشاملة للاحتلال لم يكن الهدف منها المس بمقومات الشخصية الجزائريةفحسب،بل اندرجت أيضاضمن رهانات الاستيعاب الكلي لمكونات المجتمع الجزائري من خلال بلورت ما اصطلح عليه بنظرية الإدماج والتي كانت تعني بالأساس "تحويل المواطن الجزائري، معنويا وماديا ليصبح شبيها لمثيله بالمتروبول" وإنتاج ما يعرف بالتمدين الذي تأسس عليه خطاب الاحتلال والذي لم يكن يستهدف ابعد من البحث عن مشروعية دولية.

لقد شكلت الدعوة إلى التمدين احد المكونات الرئيسية للنظرية الفرنسة للاستعمار. وان كان الواقع يناقض ذلك تماما بترجيح صفات العنف على التسامح، التدمير على البناء ويتضح ذلك في الإقرار الذي أكده سانت أرنو (Saint Arnaud) احد مساعدي بيجو حين كتب عن ذكرياته الحربية بالجزائر يقول: "لقد كانت حملتنا تدميرا منظما أكثر منه عملا عسكريا، ونحن اليوم في وسط جبال مليانة لا نطلق إلا قليلا من الرصاص، وإنما نمضي وقتنا في حرق جميع القرى و الأكواخ، وأن العدو يفر أمامنا سائقا قطعان غنمه... إن بلاد بني مناصر بديعة جدا، لقد أحرقناها كلها، آه أيتها الحرب كم من نساء وأطفال اعتصموا بجبال الأطلس المغطاة بالثلج فماتوا هناك من الجوع والبرد وليس في جيشنا سوى خمسة من القتلى وأربعين من الجرحى..."[1] فمنذ أول لقاء للمجتمع الجزائري مع الجيش الفرنسي غداة سقوط العاصمة حدثت القطيعة نهائيا بعد الأعمال الوحشية المرتكبة فتم اختراق الاتفاقية التي وقعها بورمون نفسه والتي تتضمن احترام الأشخاص والأملاك وأوّل صوت جزائري ندد بهذا الفصل كان باي التيطري فكتب إلى بورمون قائلا"إني لاأثق في كلمتك لأنك أقسمت بأنك تحترم الأملاك والأشخاص لكن عندما أصبحت سيد الجزائر استوليت على تلك وعلى هؤلاء فأي ثقة أضعها فيك"[2] لقد مثل الاستعمار في الجزائر نموذجا خاصا من حيث القسوة، عمق التأثير والعنف جعله لا يحظى بثقة الأهالي مما اضطره إلى تبني أساليب المكر من اجل إضعاف النسيج السوسيو–ثقافي للمجتمع الجزائري.

منذ احتلال الجزائر لم تراجع فرنسا عن اعتبار هذه الأخيزة امتدادا للتراب الفرنسي وبالتحديد جزءا لا يتجزأ من سيادتها الوطنية كما اقر بذلك صراحة الدستور الصادر في أعقاب ثورة 1848 ويؤكد فكتور بيكه في كتاب له بعنوان "الجزائرية الفرنسية" فيقول "إن المسافر الذي يحل اليوم بالجزائر يعرف مسبقا انه سيجد حاكما عاما، رئيس المستعمرة، كما سيسمع إذا وصل خلال

انعقاد الدورات . عن مداولات المجالس التمثيلية، وهذا ما يشهد على أن لهذه المستعمرة درجة معينة من النمو السياسي وشخصية ما. لكن سيعرف أيضا انه يوجد بمقاطعة فرنسية على رأسها وال وأخيرا وبكبرى المدن الساحلية، سوف لن يسمع السكان الاوروبين المنهمكين في دوامة الأعمال يتحدثون عن الأهالي انه سيبقى حالما"[3] ويضيف ميشيل دوفيز قائلا: "لقد اعتبرت الجزائر باستمرار كواحدة من ذواتنا ، هذه الأرض الجميلة القريبة من فرنسا، هذه البلاد المنتمية إلى أفريقيا البيضاء المقسمة إلى مقاطعات مسيرة ومدارة من لدن وزارة الداخلية، إنها امتداد للمتروبول"[4]. لقد شكلت الدعوة إلى اعتبار الجزائر مقاطعة فرنسية جسرا للوصول إلى اختراق الفرد الجزائري والمس بقيمه التاريخية وثقافته وهوما شكل مقوما أساسيا من مقومات تفكير الاستعمار الفرنسي. وقد خلص عبد الله العروي في سياق تحليله لآليات الاستعمار الفرنسي بالجزائر إلى استنتاج قوامه أن الاستراتيجية الفرنسية منذ 1830 لم تنحصر في "تحطيم الدولة الجزائرية، بل ببساطة في إحلال سلطان محل آخر،كما انه ابتداء من1848 لم يكن الهدف هو تقويض المجتمع، وحتى سنة 1870 لم يتجه التفكير نحو تغير وتشويه الإنسان التقليدي،على الرغم أن ذلك هو الذي كان من المفروض أن يحصل، وبما أن الاقتصاد لم يكن من القوة ليفرض ذلك فقد تحتم اللجوء إلى اعتماد الأسلحة و القوانين لكن ومع مرور الزمن،أي حين اكتسب الاقتصاد متانته اللازمة،فقدتخلص من مثل هذه الأساليب"[5] وتم اعتماد أساليب بعيدة عن التدمير، العنف و لكنها تركز أكثر على إحداث شقوق وفتن داخل القوى المكونة للمجتمع الجزائري.

1. السيطرة على المنظومة الدينية واستغلال الطرق الصوفية :

لقد بدأت المؤسسات الدينية تظهر في الجزائر منذ القرن الأول الهجري وكان إقبال السكان على حفظ القرآن و تعلم اللغة العربية كما كان لرجال الدين والزوايا سلطة روحية كبيرة على غالبية السكان نظرا لما للدين من قداسة لديهم وهذا ما جعل أغلبية الكتاب الفرنسيين يتهمون الجزائريين بالتعصب الديني، وقد لجأت الحكومة الفرنسية إلى تدمير المساجد ، وتحويل بعضها إلى كنائس، تهديم بعض الزوايا وإغلاق البعض الآخر والسماح لبعض المدارس بتحفيظ القرآن الكريم ولا شيء غير القرآن خاصة .عندما يتعلق الأمر باللغة العربية باعتبارها واحدة من مقومات الذات الجزائرية، في هذا الإطار يقول بولارد "اضطر التلاميذ إلى السعي وراء العلم في السر بعد أن كانوا يتلقونه علانية وفي حرية تامة، وأسندت هذه السلطة الغاشمة إدارة المساجد إلى أيدي غير آمنة بددت القسط الأكبر من الأموال ، ومنذ ذلك الحين أهمل أمر هذه المساجد التي

كانت بمثابة دور للتعليم"[6] يحدث كل ذلك بعد تشديد فرنسا على رغبتها في احترام المعتقد الديني وحماية مؤسساته. كل هذا يبين مدى الانفصام وحجم المفارقة بين الخطاب والممارسة في الإستراتيجية الاستعمارية الفرنسية وبالتالي استجلاء الأبعاد الأيديولوجية لمفاهيمها وخطاباتها المنتجة، نقرا في نص البيان الذي وجهته فرنسا إلى الجزائريين عشية إقدامها على الاحتلال(1830) "إلى القضاة والعلية والعلماء، وشرفاء المشايخ ومشاهير الناس المحترمين... إننا نضمن لكم معطينكم وعدا شريفا وصريحا لا يقبل التغير ولا التفسير بان جوامعكم ومساجدكم ستكون محترمة، فهي لن تبقى مفتوحة فقط إلى العابدين كما هي الآن ولكن ستصلح أيضا ونضمن بان لا احد منا سيتدخل في شؤونكم الدينية"[7] وهذه الدعوة تضمنتها أيضا المادة الخامسة من الاتفاق الجزائري الفرنسي الموقع بتاريخ5جويلية1830 حين نصت على"أن الدين المحمدي سيبقى معمولا به كما كان سابقا،انه سيبقى على ما هو عليه، إن حرية أهل البلاد مهما كانت طبقتهم ستبقى محترمة، وأن دين هذاالشعب وممتلكاته وتجارته وصناعته، بالإضافة إلى نسائه ستبقى محترمة أيضا"[8] .

إن وعي المستعمر الفرنسي للمكانة التي يحتلها التعليم والتربية الدينية في تكوين شخصية الجزائري وتقوية ارتباطه بهويته وتاريخه جعله يسعى لإحكام سيطرته وبسط نفوذه على المساجد ومختلف مؤسسات المنظومة الدينية من كتاتيب قرآنية، زوايا... الخ و أكثر من ذلك راحت سلطة الإدارة الفرنسية تحرر خطب الوعظ والإرشاد ثم يقوم المفتون بإلقائها تحت رقابة البوليس السياسي و هو ما يعكس بشكل جلي محاولة فرنسا الخطيرة فصل الدين عن الدولة وجعل شؤون الإسلام في الجزائر تحت إشرافها المباشر من اجل القضاء على مقومات الهوية الجزائرية وبما أن الاحتلال الفرنسي تدعمه الروح الصليبية فقد كان واحد من أهم أهدافه القضاء على الإسلام باعتباره نقطة قوة الشعب الجزائري فهو الذي يجمعهم ويوحدهم جميعا حتى وإن تعددت لهجاتهم واختلفت أجناسهم ، يعبر عن هذا لوورا بوليو فيقول "إن دين هؤلاء الأهالي دين في أعلى الروحانيات، أو من حيث بساطته ووضوح فلسفته فهو يشكل قوة دفاعية لا تخضع لبشر " وبالتالي فان ضرب و إضعاف هذا الركن القوي (الإسلام) يعني شل المجتمع الجزائري وتشتيت صفوفه، يقول احد الكنسيين" ليس الغرض من فتح المدارس في شمال أفريقيا أن نكون عقولا مثل عقول مونتسكيو أو جون جاك روسو أو فولتير ولكن لنبدل لغة بلغة ودينا بدين و عادات بعادات "[9] وهو ما يعبر عنه بسياسة البديل سواءا تعلق الأمر باللغة العربية، الدين الإسلامي أو الثقافة الشعبية ...الخ .

وحول مسالة الطرق الصوفية وعملية استغلالها ضمن المشروع الاستعماري فجدير بنا في البداية أن نبين بان الطرق الصوفية كعقيدة فلسفية ودينية ظهرت في الجزائر مع بداية القرن السادس عشر ثم أخذت تنمو لتنتشر على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر[10] والطرق الصوفية كثيرة الأنشطة والمهرجانات الموسمية كالزرد يحضرها الناس من أماكن مختلفة و هي قائمة أساسا على المحبة في الله والتضامن بين الإخوان وقد حاولت فرنسا أن تستغل نفوذ هذا الطرق الصوفية الواسعة الانتشار بالجزائر كالتيجانية، السنوسية،الشاذلية،القادرية إذ أن لشيخ الطريقة نفوذ أوسع من نفوذ شيخ القبيلة[*]. وقد كان لهؤلاء المرابطين الطرقيين دور بارز في تعزيز الجانب الثقافي و السياسي للشعب الجزائري بحملهم لواء الثقافة ، التعليم ، تخليدهم لتراث من الأشعار و الأذكار غير أن هذا لم يعفيهم من الوقوع في بعض مظاهر الدروشة ، الشعوذة ، الخرافات والبدع وكان هذا هو البعد الأساسي الذي ركز عليه المستعمر الفرنسي إضافة إلى سعيه المستمر خلق جو من الخلافات، الخصومات بين بعض شيوخ الزوايا لأغراض شخصية تتعلق بالنفوذ والمكانة الاجتماعية وبعض القضايا الدينية، كل هذا من اجل الهاء الشعب وإشغاله عن المقاومة والثورة. والأكثر من ذلك حشو ذهنه بمعتقدات خرافية تساهم في تخلف فكره والرجوع به إلى المراحل اللاهوتية والميتافيزيقية للتفكير الإنساني كأن يتعلق الأمر بالإيمان في قدرة الموتى على رزق الأطفال، الأموال، منع المصائب، الشفاء من الأمراض، إقامة الزردات على أضرحتهم، الإيمان بجدوى التمائم و التعاويذ في شفاء الأمراض وعلى أي حال فان الاحتلال الفرنسي رغم قسا وته وخبثه بقي عاجزا عن تحطيم العقيدة الراسخة في نفوس الجزائريين والذي يغذيها و يدعمها دوما الإسلام ، فكان التشديد على الدفاع عنه من طرف الذات الجزائرية واستحضار مكانته المدنية والحضارية. هذا ولما كانت الهوية لا تعني الانتماء إلى دين محدد فقط بل أيضا إلى فضاء أيديولوجي وثقافي كإشارة أو كتعبير عن المقومات اللغوية والثقافية فان الدفاع عن اللغة والتعليم قد احتل نفس المكانة والاهتمام،يقول ابن باديس في هذا الصدد "لن يصلح المسلمون إلا إذا صلح علماؤهم، لأنهم بمثابة القلب للأمة ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم "[11]

2.تشجيع التناحر العشائري:

حاول الاستعمار الفرنسي أن يتعرف على تركيبة وخصوصية المجتمع الجزائري وأدرك بأنه من طبيعة خاصة تتسم بالقوة و الترابط فتأكد له عجز وفشل الإمكانيات العسكرية والمادية في السيطرة الفعلية على مثل هذه التركيبة المجتمعية. وفقا لهذه النظرة عمل المارشال راندون على تقويض سلطة رجال

القبائل وأعيانها، وبالمقابل تقديم امتيازات مالية إلى بعضهم أمثال الآغوات والقياد والشيوخ، واقتناعا منه بالدور الذي تمارسه الزوايا ورؤساؤها فقد اجتهد من اجل استمالة الطرقيين ومراقبة إطاراتهم الدينية، وأيضا إدراكا منه لمكانة التعليم والثقافة الإسلاميين في حياة الشعب الجزائري فقد عزل المشرفين على المدارس القرآنية في القبائل مؤسسا على غرار ذلك ثلاث مدارس في كل من قسنطينة وبليدة وتلمسان، متمتعة بنظام تعليمي تابع من حيث مناهجه ومضمونه لنظيره بالمتروبول ،أملا في أن يتمكن من تخريج أطر مؤهلة لأن تضمن نوعا من الولاء لفرنسا [12].

اعتمدت الإستراتيجية الفرنسية بدهاء توظيف مجموعة من الأساليب ابتداء من 1830 وواصل العمل بها إلى سنة 1962 لتفرقة صفوف الجزائريين وإضعاف قوتهم فراحت منذ البداية تسعى للقضاء على الملكية الجماعية الأهلية للأرض كوسيلة لإضعاف صفوف الجزائريين، وقد خصص كار ل ماركس لنظام ملكية الأرض في الجزائر ودوره في ترابط النسيج الاجتماعي قائلا " ... الجزائر هي التي تحتفظ – بعد الهند – بأهم أثار الشكل القديم للملكية، فقد كانت الملكية القبلية و العائلية المشتركة الشكل الأكثر شيوعا فيها. وقد عجزت قرون من السيطرة العربية والتركية، وأخيرا الفرنسية – إلا في الحقبة الأخيرة المتأخرة، ورسميا منذ قانون 1873 – عن تحطيم التنظيم القائم على أساس رابطة الدم و المبادئ النابعة منه... من هنا كان السعي إلى تقسيم الملكيات العائلية، بل فرضه فرضا أولا كوسيلة لإضعاف القبائل الخاضعة التي تقف على الدوام ، القضاء على الملكية الجماعية الأهلية بإطلاق حرية البيع والشراء مما يسهل انتقالها في خاتمة المطاف إلى أيدي المعمرين الفرنسيين"[13] كما عملت السياسة الفرنسية على غرس في أذهان الجزائريين ثقافة مزيفة ومصطنعة تقوم على مجموعة من الأفكار الوهمية تقول بعدم وجود شعب ولا امة جزائرية، وأن المجتمع الجزائري خاصة من الناحية الريفية قبل الغزو الفرنسي كانت تتكون من قبائل و أعراش متقاتلة متصارعة فيما بينها و لم تكن سلطة تجمعها، وأن الفضل في جمعها يعود للاستعمار الفرنسي الذي سعى مرة أخرى نشر أفكار بين أفراد الأسر التي تركها العثمانيين في الحكم سنة 1830 فكان يؤلب الابن على الأب وابن الأخ على عمه و يشعل نار الفتنة بتخصيص امتيازات كبيرة للأفراد الذين يشاركون في إخضاع الأعراش وتكسير الأسر التقليدية التي تتمع بنفوذ واسع في أوساط العامة من الناس و التي كانت تتوارث الحكم و ترفض وتقاوم الاحتلال[14] وقد نجح الاستعمار إلى حد كبير في إحكام سيطرة الوساوس الأوهام وبعض الأفكار المزيفة على عقول الجزائريين وانعكس ذلك جليا في المعارك و القتال المستمر بين الأعراش والقبائل لأتفه الأسباب.

يعد القرن 19 وتحديدا المرحلة الممتدة من 1870-1900 من أخطر مراحل الاستعمار الفرنسي حيث تم تطبيق نظام مدني ينص على ضرورة تقسيم الجزائر إلى إقليمين كبيرين (صحراوي و ساحلي) وكان الغرض من ذلك تشتيت قوة الجزائريين و إضعافهم من جهة ومن جهة أخرى تفريغ السهول الساحلية وطرد العنصر الجزائري معوضا إياه بفئة المعمرين ومن الناحية الاجتماعية سعت فرنسا إلى تفكيك البنية التقليدية للمجتمع الجزائري مركزة على نواته الأساسية ويتعلق الأمر بالقبيلة كظاهرة اجتماعية شاملة تصبغ الأرض صبغة إنسانية وتسير السكان بوئام وتضامن، قد أصيبت بالتفكك العميق فقسمت الأعراش والقبائل المتجانسة إلى وحدات إدارية متنافرة، وكونت منها دواوير طيعة والقياد الذين عينوا على رأسها لا يثيرون مشاكل للسلطة الاستعمارية، فتجزئة القيادات الكبرى أراحت الإدارة من سيطرة القادة الكبار المتعوذين على الامتيازات والمنقادين بصعوبة للأوامر التي تصلهم [15]. وطبقت قانون الحالة المدنية الذي طبّق أحيانا بهدف القضاء على الروابط الأسرية والمجتمعية، وبالخصوص إذا رافقه نقل السكان من مناطقهم الأصلية إلى مناطق أخرى لتفكيك الكيانات القبَلية، مع غض الطرف عن التناحر العشائري بتشجيع سياسة "**فرق تسد**" التي تجد ترجمتها العملية في العديد من المشاريع المعتمدة فأنتجت اللامساواة في جل الميادين وحاولت بناء عوالم عدائية يكون فيها الأفراد مستلبين، ينخرهم الصراع القبَلي وهو ما يضمن الأمن والهدوء للإدارة الاستعمارية، فيشغل الخصوم بمراقبة بعضهم بعض وذلك ما يمكّن النخبة الاستعمارية من السيطرة على كل المجتمع .

3. تعميم الأمّية

لم يرتق المستعمر الفرنسي إلى حد صياغة مبادئ ثابتة لسياسته التعليمية والثقافية، وإن كانت منطلقاته واضحة من حيث فلسفتها الاستعمارية وأبعادها العميقة في مجال تدمير شخصية الجزائر وإعاقة تطور نظمها الثقافية والمعرفية حتى وان عبرت فرنسا بأنها أتت للجزائر لنشر رسالتها الحضارية بواسطة المدرسة الفرنسية وما توفره من علوم ومعارف، ولكنها من الناحية الفعلية والضمنية غير المصرح عنها أنها سعت إلى مشاريع طمس الهوية العربية الجزائرية الإسلامية من خلال خاصة التركيز على تحطيم المدارس العربية وتوقيف تدريس اللغة العربية بل والأخطر من ذلك "جعل عملية تعليمها وتعلمها جريمة يعاقب عليها القانون" [16] وفي المقابل تم ايلاء عناية للغات العامية واللهجات الإقليمية وذلك لكسر روح المواطنة والانتماء فاللغة هي دالة الفكر أو هي "مجلى الفكر" وأن ترك الاشتغال به يعني موت للحياة العقلية[17] فاللغة تجعل للمعارف والأفكار البشرية قيما اجتماعية قيما اجتماعية وتحفظ للأجيال القادمة التراث

الثقافي. وقد بين فيخته ما للغة من اثر بالغ في تطور الشعوب فقال " أن اللغة تلازم الفرد في حياته، وتمتد إلى أعماق كيانه وتبلغ إلى أخفى رغباته وخاطراته، إنها تجعل من الأمة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانين، إنها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان... كما أن الحدود الحقيقية للأمم هي حدودها الداخلية أي التي تميز عقليتها وتفكيرها ولغتها ..." [18].

لقد تدهورت حالة التعليم مع بداية الاحتلال خاصة بعدما ركز المستعمر الفرنسي على تعميم سياسة التجهيل بين مختلف صفوف الشعب من خلال منعه من التعليم في مدارسه الفرنسية وحتى منعه من مواصلة تعليمه التقليدي ، وهو ما عبر عنه احد المفكرين الفرنسيين بقوله " ولكننا على كل حال أردنا أن نجعل من إخواننا المسلمين شعبا من الأميين ويبلغ عدد الجزائريين الأميين اليوم 80 % وقد كان الأمر يهون لو أننا لم نحرم عليهم إلا استعمال لغتنا، ولكن الواقع أن من متطلبات النظام الاستعماري أن يحاول سد طريق التاريخ عليهم، ولما كانت المطالب القومية في أوروبا تعتمد دائما على وحدة اللغة، فقد حرم على المسلمين استعمال لغتهم بالذات "[19] .

ركزت الإستراتيجية الاستعمارية على تعميم سياسة التجهيل بين مختلف صفوف وطبقات المجتمع الجزائري ونجحت إلى حد بعيد كما نلمس ذلك من قراءة صورة استخلصها محمد فريد خلال زيارته للجزائر في بداية القرن العشرين(1901) حيث كتب عن حركة التعليم يقول"هجرت ربوع العلم، وخربت دور الكتب، وصارت الديار مرتعا للجهل والجهلاء، وكادت تدرس معالم اللغة العربية الفصحى، وتطرقت إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية بل أصبحت اللغة الفرنساوية هي لغة التخاطب في العواصم مثل وهران والجزائر وقسنطينة وعنابة وغيرها... إن حالة التعليم في القطر الجزائري سيئة جدا ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل العربية في جميع المعاملات بل ربما لن تدرس العربية بالمرة مع مضي الزمن فلاالحكومةتسعى في حفظها،ولا تدع الأهالي يؤلفون الجمعيات لفتح المدارس..." [20].

لقد اعتمدت السوسيولوجيا الكولونيالية فرضية مقاطعة الجزائريين للتعليم الفرنسي المقترح لتبرير معدلات التمدرس ومحدودية نتائج الجهاز المدرسي الاستعماري متجاوزة بل ومتناسية أن قادة فرنسا هم ذاتهم لم يكونوا على استعداد لإشاعة التعليم وعيا منهم بخطورة ذلك على وعي النخبة الجزائرية[21] غير أن الحقيقة التي اتفق حولها جميع الباحثين حتى الفرنسيين منهم هي أن التعليم في الجزائر كان في عام 1830 أكثر انتشارا فقد كان هناك الكثير من المؤسسات التعليمية من مدارس، مساجد وزوايا تهتم بالتعليم في مراكز عدة من الوطن مثل تلمسان، قسنطينة، وهران، الجزائر، بسكرة،

بجاية وفي كل مدينة من هذه المدن ظهرت عائلات اهتمت بنشر العلم والحفاظ على مؤسساته التقليدية المعروفة كالمساجد، الزوايا والكتاتيب القرآنية [22] فالتقارير العسكرية الفرنسية تشير إلى أن اللغة العربية وثقافتها كانت كثيرة الانتشار عبركامل تراب الجزائر آنذاك وأن كل الجزائريين كانوا يحسنون القراءة والكتابة وكان في كل قرية مدرستان اثنتان[23] وفي هذا الصدد يقول الكاتب الفرنسي **بولا رد** في كتابه (تعليم الأهالي في الجزائر) "كانت الجزائر فيما مضى تضم معاهد علمية عظيمة الشأن فالفلسفة والآداب والطب وقواعد اللغة والقانون الإسلامي وعلم الفلك كل هذه العلوم كان يقوم بتدريسها أساتذة كبار من الجزائريين أنفسهم كما كانت هناك مدارس عديدة متخصصة في تعليم القضاء الشرعي والعلمي وكان الملوك يختارون مستشاريهم من صفوة المتعلمين من خرجي تلك المعاهد" [24] كل هذا لم يكن يرضي السلطات الاستعمارية في الجزائر .

لقد شكلت ثنائية (تعليم/تجهيل) الجزائريين قضية جوهرية ضمن المشروع الاستعماري فبرز تياران متعارضان، وبالنسبة للفريق الأولى فقد شجع على تبني سياسة تجهيل الجزائريين وغلق أبواب التعليم في وجوههم لأن هذا من شانه تجميد عقولهم وشل حركة تفكيرهم وبالتالي يسهل إمكانية استعمارهم واستغلال خيراتهم على النقيض من ذلك نجد التيار الثاني يؤكد ويحبذ-ولو على مستوى الطرح النظري- ضرورة تعليم أهالي الجزائر لتكوين نموذج جديد للمثقف الخاضع للسلطة للاستعمارية والمندمج في مشروعها، لأن الهدف الأساسي هو مساعدة الأهالي على الاندماج في المخطط الاستعماري الكبير ويعبر عن ذلك شارل روبير اجرون فيقول "**ليست مدرسة الأهالي مجرد إطار للغة والتخاطب بالفرنسية، بل هي مجال للتأثير على العقول،والعمل قدر الإمكان على تحررها ومساعدتها على التمثل العقلاني للثقافة الأوروبية**"[25] لان هذا فيه مصلحة للاستعمار أولا وحجتهم في ذلك أن المدرسة وسيلة لتجريد الشعب الجزائري من شخصيته تدريجيا يقول برنارد "**ليس من الكرم في شيء أن ترغب الجامعة في نشر العلم في القبيلة بل دعونا نقولها كلمة صريحة ونطلقها مدوية.إن ذلك في صالح فرنسا وحدها، وهو ما نضعه دائما نصب أعيننا**"[26] ويمكن القول أن فلسفة تعليم الجزائريين ضمن المشروع الاستعماري الفرنسي تقوم على ضرورة التأكيد على عظمة فرنسا، حتى يكون الشاب الجزائري ملما بتفاصيل تاريخ فرنسا في المقابل يجهل معالم بلاده (الجزائر) وتاريخها بحجة أنها مقاطعة فرنسية وبالتالي فلا داعي لمعرفته لأنه متضمن آليا في تاريخ فرنسا ويبقى الهدف الأساسي والبعد الجوهري لهذه السياسة الاستعمارية هو تجريد الشعب من شخصيته وهويته ليقع فريسة في يد المستعمر ، يقع كل هذا من خلال السيطرة على المنظومة التعليمية ولهذا نجد الشاعر الباكستاني محمد إقبال يقول:" إن التعليم هو الحامض الأشد قوة وتأثير من أي مادة كيميائية، فهو الذي

يستطيع أن يحول جيلا شامخا إلى كومة من التراب" (27).

في الأخير نقول إن التطرق لبعض ملامح المشروع الاستعماري في الجزائر لاسيما الأبعاد الثقافية منه يعطينا نظرة شاملة حول فلسفة السياسة الفرنسية في الجزائر ومحاولاتها تغريب الفرد الجزائري واختراق قيمه الدينيةوالثقافية ومن الثابت أنها قد أوجدت لهذا الغرض أكثر من نظرية (الإدماج مثلا) مستغلة تقدم فروع من العلوم المعاصرة (التاريخ، الأنتروبولوجيا، الأثنوغرافيا...) موظفة معطياتها الموضوعية وأدواتها المنهجية لتؤسس على قاعدة ذلك سياسة الرغبة في طمس معالم هوية الذات الجزائرية و إعدام وجودها التاريخي دون استخدامات مكلفة ماديا أو عسكريا بل يتعلق الأمر بسياسة البديل وكل هذا من منطق الفكرة الاستعمارية المزيفة القائلة بأن الجزائر مقاطعة فرنسية، غير أن الشعب الجزائري قوي بانتسابه الديني و الروحي كما عبر عن ذلك الأمير عبد القادر حين كتب إلى بيجو بأسلوب مجازي مفعم بالرموز "هل يثير العصفور الأمواج إذا ما مسها ؟ تلك هي صورة مروركم بالجزائر"

الهوامش:

(1) العقاد (صلاح)، المغرب العربي،دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة: الجزائر، تونس، المغرب الأقصى ، المكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1980 ، ص117.

(2) شاتي (محفوظ)، الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها، ترجمة محمد الصغير بناني وعبد العزيز بوشعيب، مطبعة الديوان الوطني لمحو الأمية وتعليم الكبار، 2000، ص177

(3) Piquet (victor), L Algérie française:un siècle de colonization(1830-1930) عن نقلا عن محمد مالكي: الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي ،مركز دراسات الوحدة العربية ، ط2،بيروت،لبنان ، 1994،ص ص 134-135

(4) Devez (Michel), La France d outre-mer de L empire colonial a l union française ,1938-1947 hachette,Paris 1948, p 09
نقلا عن محمد مالكي ، مرجع سابق، ص157

(5) La roui , L'histoire du Maghreb: un essai de synthèse ,tome 2,p79
عن محمد مالكي،مرجع سابق،ص147

(6) بوعزيز (يحي)، السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري(1830-1962)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995 ص ص 160-161.

(7) سعد الله (أبو القاسم)،:الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)،ج2، معهدالبحوث والدراسات العربية، ط 2، القاهرة ، مصر،1977،ص467

(8) المرجع نفسه ،ص469

(9) الدسوقي(ناهد إبراهيم)،دراسات في تاريخ الجزائر ،منشأة المعارف،الإسكندرية،مصر 2001،ص20

(10) عميراوي(أحميدة)،مختصرات في تاريخ الجزائر الحديث ، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة 1999، ص91

(*) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى : المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ، الدبلوماسية الجزائرية (1830-1962) ، الجزائر ، 2001

(11) ابن باديس (عبد الحميد)، كتاب آثار ابن باديس ، إعداد عمار الطالبي ، ج1،دار اليقظة العربية ، الجزائر 1978،ص101

(12) مالكي (محمد) ، مرجع سبق ذكره ،ص168.

(13) كارل ماركس وفريد يريك انجلز : الماركسية والجزائر، ترجمة جورج طربيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ،1978،ص ص55-61.

(14) خنوف (علي) :السلطة في الأرياف الشمالية لبايلك الشرق الجزائري، الميزان للنشر والطباعة، الجزائر 1999،ص65.

(15) سماتي (محفوظ) ، مرجع سبق ذكره ، ص 194

(16) الورتلاني (الفضيل)، الجزائر الثائرة،دار الهدى، الجزائر ، 1992 ، ص311

(17) العقاد (عباس محمود)،"محمد عبده"سلسلة أعلام العرب ، العدد الأول ، المؤسسة المصرية العامة ، بدون تاريخ ، ص268.

(18) تراث الإنسانية "فحته ، نداءات إلى الأمة الألمانية" العدد الثالث ، 1964 ، ص 213

(19) سار تر (جون بول) : نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، ترجمة سهيل إدريس، مجلة الآداب، العدد 6 بيروت ، لبنان ، جوان 1956 ، ص87

(20) الجندي (أنور)،الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا،الدارالقومية،القاهرة،مصر،1965،ص133

(21) محمد مالكي ، مرجع سابق ، ص 148

(22) سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1981،ص 181

(23) هلال (عمار) : أبحاث و دراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة ،(1830-1962) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995،ص108

(24) بوعزيز(يحي) ، مرجع سابق ، ص159

(25) مالكي (محمد) ، مرجع سابق ، ص146

(26) بوعزيز(يحي) ، مرجع سابق ، ص 162

(27) جمال الدين (محمد السيد)، محور الإصلاح عند محمد إقبال:مجلة كلية الشريعة و أصول الدين و العلوم العربية و الاجتماعية بالقصيم، عدد2 السنة الثانية 1401-1402،المملكة العربية السعودية ،ص132